

رؤية القرآن للعالم: قضايا منهجية

(محمد الحسن بريمة إبراهيم)

أصل القضية المنهجية

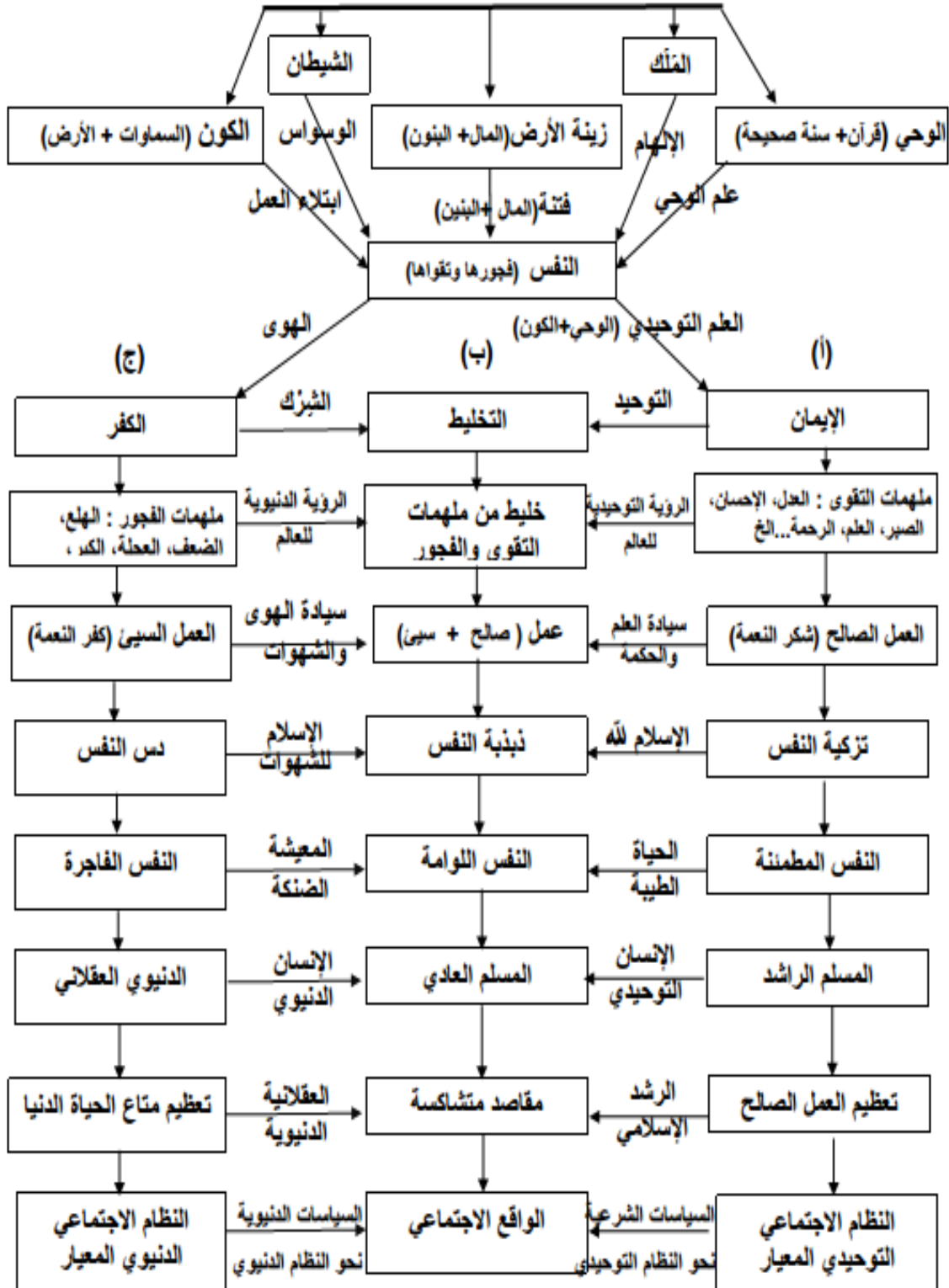
برز خلاف منهجي من داخل العروض التي تم تقديمها عن رؤية القرآن للعالم من قبل بعض أعضاء الفريق البحثي في إطار تكليفهم بذلك. وأصل الخلاف جاء من تعليقي على العروض بأنها جميعاً انطلقت من الرؤية الإسلامية التوحيدية المعيارية باعتبارها مطابقة لرؤية القرآن للعالم، لأن التكليف هو أن يكتب كل باحث ما يرى أنها رؤية القرآن للعالم. كان تعليقي هو أن رؤية القرآن للعالم تختلف عن الرؤية الإسلامية التوحيدية للعالم، لأن الأخيرة هي رؤية معيارية تنظر إلى العالم من زاوية واحدة هي التوحيد، بينما رؤية القرآن للعالم هي رؤية كلية موضوعية من عند الله تعالى ترى العالم من زوايا متعددة، تشمل فيما تشمل الرؤية الإسلامية المعيارية للعالم. بمعنى آخر فإن الرؤية الإسلامية التوحيدية للعالم تصيغ نفسها في شكل السؤال الآتي: كيف يبدو العالم لو أن كل الخلق، بما في ذلك الإنسان والجن، أسلم وجهه لله تعالى؟ لو أن كل الإنسان على ألقى قلب رجل منهم؟

لا شك أن رؤية العالم الإسلامية المعيارية هي رسالة القرآن للعالم، لاسيما عالم الإنسان: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)، (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)، والمطلوب من جميع الناس، أفراداً ومجتمعات، الإسلام لهذه الرسالة حتى يروا العالم من خلالها: (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين)، (قل إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي لله رب العالمين)، (ومن أحسن ديناً ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين)، (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة). لكن رؤية القرآن للعالم تبين أن هناك رؤية معيارية أخرى، هي نقيض الرؤية الإسلامية، يرى من اختارها العالم من خلالها، وهي الرؤية الدنيوية، المؤسسة على قول الله تعالى: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر). وكلا الرؤيتين بالنسبة للإنسان تنبعان من طبيعة النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها، وما يترتب على ذلك من خياراتها الحياتية في ابتلاء زينة الحياة الدنيا: (فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر)، (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن)، (إنا هديناه السبيل إما شاكراً، وإما كفوراً).

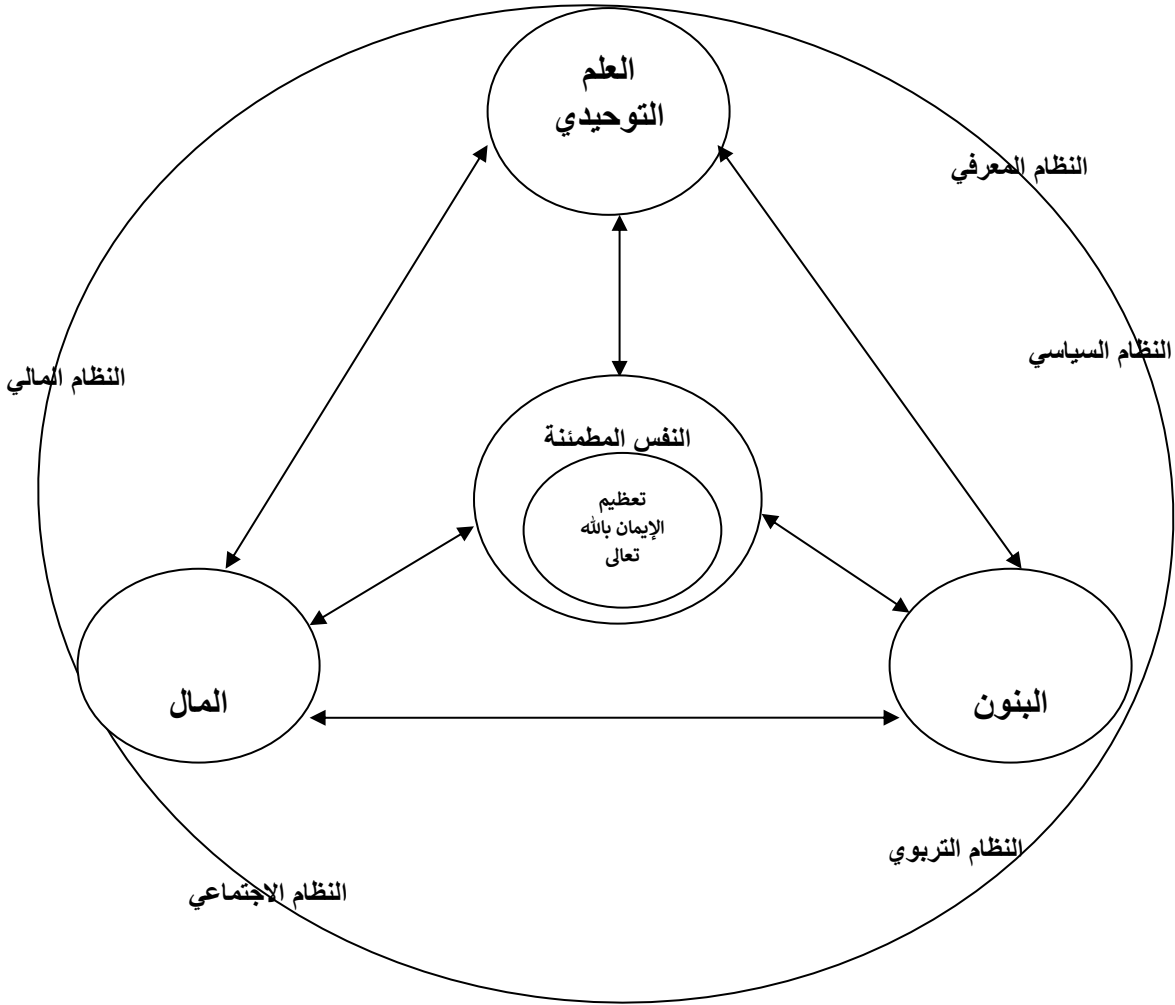
الرسوم البيانية أدناه تبين رؤية القرآن للعالم في موضوعيتها الشاملة، والرؤيتين المعياريتين الإسلامية والدنيوية، ونظم الاجتماع التي تنشأ معبرة عن معياريتهما. ولما كانت معطيات الرؤية الدنيوية، ونظم الاجتماع التي تبني عليها هي السائدة عبر التاريخ البشري على الأرض كما يخبرنا القرآن الكريم، وكما تخبرنا كتب التاريخ، فإن رؤية العالم التوحيدية تنزل عادة رسالة سماوية عبر الرسل على واقع اجتماعي تسوده الرؤية الدنيوية، ويتم التدافع بين الرؤيتين لينتج عن ذلك واقع اجتماعي جديد لا هو توحيدي خالص، ولا هو دنيوي خالص، سواء على مستوى التدين الفردي، أو التدين الجمعي، كما يبين ذلك الشكل التوضيحي الأول أدناه. والغالب أن تخبو جذوة الدين أمام دفع الدنيا بمرور الزمان، وتؤول الهيمنة الاجتماعية للرؤية الدنيوية مرة أخرى، كما هو الحال في مجتمعات الديانات التوحيدية اليوم. وهذا التداول بين الرؤيتين كان يتم قبل البعثة المحمدية بإرسال الرسل من الله تعالى إلى الناس ليقام الدين الحق على أنقاض الباطل السائد، أما بعد ختم النبوة فهو جهد العلماء في استنطاق الوحي عما يمكن أن يقام به الدين في الزمان والمكان.

رؤية القرآن للعالم

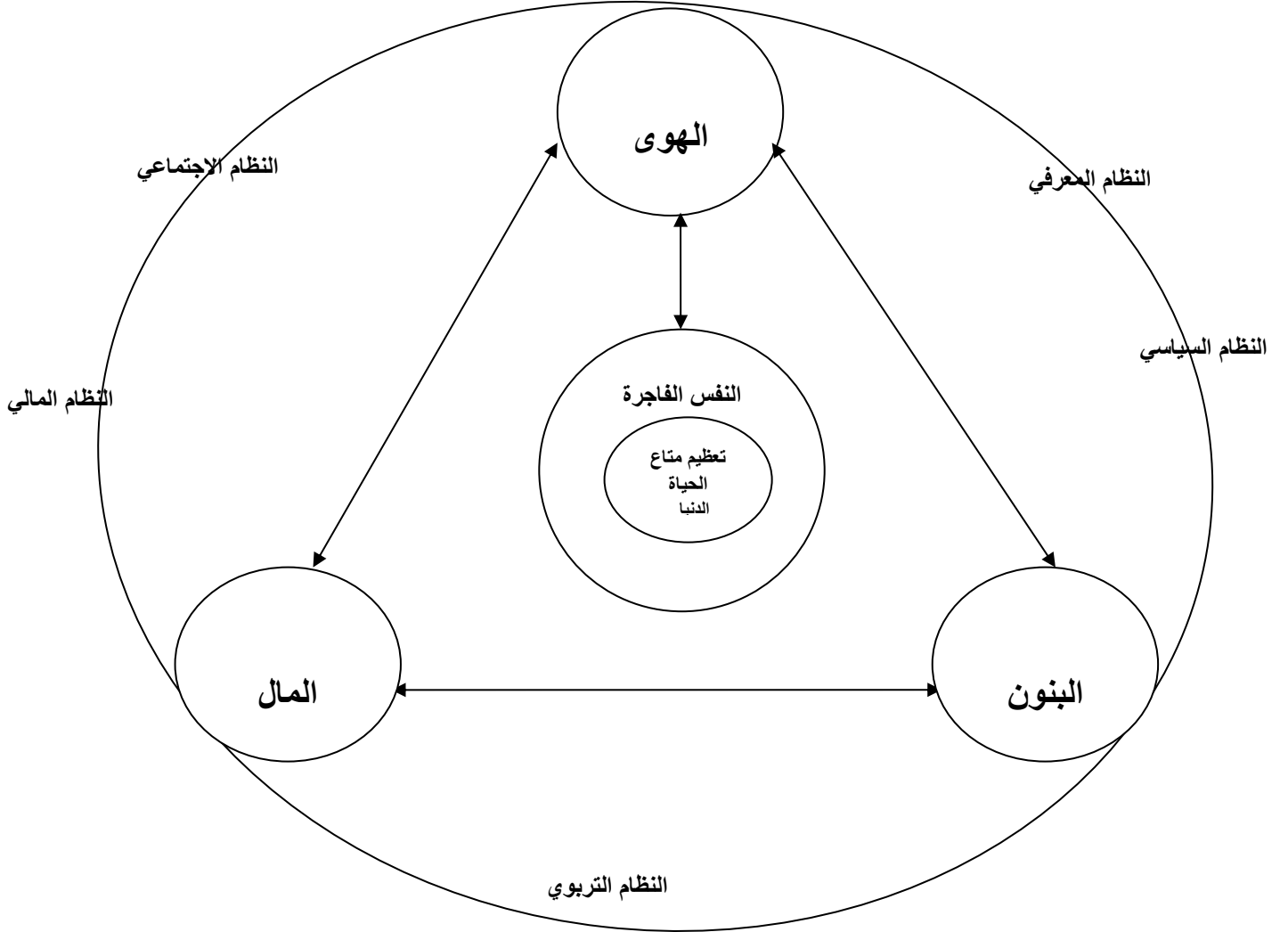
الله جل جلاله



شكل رقم (2)



شكل رقم (3)



إذن الرؤية الإسلامية المعيارية لا ترى العالم إلا من خلال التوحيد، ولذلك لا تسمح برؤية الشر، سواء تمثل هذا الشر في الشيطان، أو في أفعال الإنسان، فجميع الأفعال، والأعمال بالضرورة هي صالحة، تدور بين الجوب والندب فقط، لأن النفس تسودها ملهمات التقوى، فهي نفس مطمئنة. كذلك لا تسمح بأن نتكلم عن حق الإنسان في الاختيار بين الكفر والإيمان، لأنها تفترض أن الناس قد اختاروا الإيمان، وليس لهم من بعد ذلك الخيرة من أمرهم: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)؛ (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)..إلخ. لكن الإنسان يمكن أن يختار بين عمل صالح وآخر أصلح منه. كذلك فهي محجوبة عن رؤية العالم الدنيوية، والمآلات الكونية التي تترتب على تحققها واقعا اجتماعيا، لأن هذه الأخيرة أصلا غير موجودة بالنسبة لها ما دامت ملهمات الفجور في النفس لا أثر لها، وإبليس وذريته الشيطانية لا وجود لهم، فالجن، كالإنس، جميعهم مسلمون. وبالنسبة للغيب فهي لا ترى النار، بل ترى الجنة فقط لأن جميع المكلفين صالحين، وهم جميعا على قلب أتقى رجل منهم، لأن ملهمات التقوى هي وحدها المهيمنة على النفس البشرية، فكانت الأرض بهم معمورة بالصلاح المؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة.

ذات التحليل ينطبق على رؤية العالم الدنيوية، فهي لا ترى الغيب أصلا، ولذلك فالله تعالى لا وجود له، ومن ثم فلا معنى للحديث عن الجنة والنار، وعن عمل صالح وآخر سيئا، ولا حلال ولا حرام، والإنسان سيد الكون ومركزه، وهو وحده الفاعل فيه. النفس هنا تهيمن عليها ملهمات الفجور فقط، والأمر بالنسبة لها: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر).

الإشكالات المنهجية

إذا افترضنا أن رؤية القرآن للعالم مطابقة للرؤية الإسلامية التوحيدية المعيارية، فإن علينا مواجهة الإشكالات المنهجية الآتية:

أولا؛ لا معنى لإرسال الرسل والرسالات السماوية، لأن ذلك يقتضي أن الواقع الاجتماعي البشري على الأرض تسوده بالكامل معطيات الرؤية الدنيوية، أو تهيمن عليه بصورة من الصور مما اقتضى إرسال الرسل، وهذه الرؤية الدنيوية قد تم استبعادها افتراضا،

ثانيا؛ لن نستطيع أن نعطي تفسيرا للتاريخ البشري، لأن أحداث التاريخ صاغتها رؤية العالم الدنيوية أكثر منها الإسلامية التوحيدية،

ثالثاً؛ لن نستطيع أن ندعو إلى إقامة الدين في الواقع الاجتماعي، لأننا لن نستطيع تفسير هذا الواقع لنفهمه، وهو متشكل في غالبه من رؤية العالم الدنيوية، ومن ثم لن نستطيع وضع سياسات شرعية تستوعب ذلك الواقع، بشروط الزمان والمكان، لنقيم الدين فيه، رابعاً؛ لن نستطيع فهم أحكام الجهاد في الإسلام، لأنها مبنية على يقين بوجود واقع اجتماعي مؤسس على رؤية العالم الدنيوية، مناصب العداة لرؤية العالم التوحيدية التي تحاول المزاحمة على ذات المكان والزمان،

خامساً؛ لن نستطيع فهم أحكام التكليف الشرعية المتعلقة بالحرام والمكروه، التي تتأسس على تأثير ملهفات الفجور في نفس المسلم فتدفعه إلى الفعل المخالف لمقتضى التقوى، الموافق لمقتضى الهوى، المنتمي إلى رؤية العالم الدنيوية: (لا يزني المؤمن حين يزني وهو مؤمن)- الحديث،

سادساً؛ لن نستطيع تأسيس علوم اجتماعية وصفية لدراسة تلك الظواهر الاجتماعية السالبة التي تهيمن اليوم على المشهد الاجتماعي في المجتمعات المسلمة المعاصرة، وهي ظواهر لا يمكن تفسيرها بردها إلى إقامة الدين على أساس الرؤية التوحيدية. هذه الظواهر السالبة تعود أسبابها إلى التأثير القوي لمعطيات رؤية العالم الدنيوية على هذه المجتمعات، سواء جاء التأثير السالب من عند أنفسها، أو من خارجها،

سابعاً؛ لن نستطيع تأسيس علوم اجتماعية لفهم الآخر الذي يؤسس مجتمعه على رؤية العالم الدنيوية، وهو مجتمع مجاور ومتفاعل،

ثامناً؛ لن نستطيع فهم المجتمعات المعاصرة التي تحولت بفضل العولمة إلى مجتمع عالمي واحد كبير، يصعب التمييز فيه بين مجتمع مسلم وآخر غير مسلم.

إن استحضار رؤية العالم الدنيوية، وتمظهراتها في الواقع الاجتماعي شرط ضروري لفهم الكثير من أحكام الإسلام المتعلقة بإقامة الدين في ذلك الواقع، سواء أحكام التكليف المتعلقة بالحرام في واقع يقام فيه الدين، أو أحكام الجهاد، وكل ما يتعلق بالآخر المحارب، أو المسالم. إن إقامة الدين الإسلامي بمقاصده وأحكامه في الواقع الاجتماعي تقتضي الأخذ بالرؤيتين معاً، الرؤية الإسلامية التوحيدية بغرض التمكين لها: (إن الدين عند الله الإسلام)، والرؤية الدنيوية للقضاء على التهديد الدائم الذي يشكله تأثيرها الفعال على المشهد الاجتماعي لمجتمع التوحيد: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)؛ (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم..). لذلك نفهم حديث علماء المقاصد عن حفظ مقاصد الدين من جانب الوجود،

ومن جانب عدم، لأن الأخير يعني حفظها مما يزيلها، أو يهدد بزوالها، وهي مهددات مصدرها جميعاً رؤية العالم الدنيوية، وتمظهراتها الاجتماعية، سواء من داخل المجتمع المسلم، أو من خارجه.

إن النتائج المنهجية أعلاه بالغة الدلالة على مسار المشروع البحثي لإمام الذي هو موضوع هذا التحليل، لأننا ببساطة لا نستطيع أن نبحث عن نظم اجتماعية مؤسسة على الرؤية التوحيدية دون البحث عن نظم اجتماعية مؤسسة على الرؤية الدنيوية، والتفاعل بينهما بما يشكل أي مجتمع من المجتمعات البشرية المعاصرة. ويرجع كل هذا التعقيد إلى طبيعة النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها كما وصفها القرآن الكريم، وهي ملهات تتدافع على الدوام في نفس كل إنسان، والغلبة دائماً نسبية لهذه، أو لتلك، وبناء على هذه الغلبة تتحدد طبيعة الأفراد، وهوية المجتمعات من حيث نظمها، ومآلات مستقبلها.

تم بحمد الله تعالى

